ألله ! . . .

DIEU

لشاعر الحب والجمال لامرتين

بقلم الأستاذ محمد أسعد ولاية

[لما وجه لامرتين هذه الأبيات إلى « لامنيه » كان يومئذ على اتصال به منذ أمد قريب حيث استهواه الباب الأول من بحث دينى فى « التكران » عام (١٨١٧) ، فأنشأها خلال رحلة قام بها على جواد بين باريس وديجون فى الأيام الأولى من مايو عام (١٨١٩) . وهذه القصيدة التى ترتبط بنوع تعليمى تكاد تشتمل على أروع أبيات تحدد وتصف القدرة الالهية ، ويندر أن يستند الشعر الفلسفى إلى العلم متقد إلى هذا الحد]

(الى الراهب ف . د . لامنيه)

نعم ، إن روحى لتبتهج بالتحلل من قيودها :

طارحة عبء البؤس البشرى ،

تاركةً حواسى تهيم فى هذا العالم ، عالم الأشباح ،

حيث أصعد إلى عالم الأرواح بدون عناء .

هنالك أطأ تحت أقدامى هذا العالم المنظور ،

وأرتع حراً فى ساحات الخفاء .

إنّ روحى لتضيق فى سجنها الرحب ،

إننى فى حاجة إلى مقر لا أفق له

* * *

كقطرة ماء صُبَّتْ فى المحيط ،

يستغرق الخلدُ فى كنفه تفكيرى ،

هنالك ملك الفضاء والخلود

وهى تجرؤ على استكناه الزمن والعالم اللانهائى

تقترب من العدم ، وتطوف فى الوجود

وتعرف من الله الجوهر الغامض .

بيد أنى حينما أريد تصوير ما أشعر به

تتلاشى جميع العبارات كمجهودات فاشلة ،

تعتقد روحى أنها تتحدث ولسانى متلعثم ،

يصفع الهواء عشرين صفعة خيال تفكيرى .

لقد خلق الله للأرواح لغتين مختلفتين :

فى نبرتين تاريخيتين تتبخر إحداهما فى الهواء ،

وهذه اللغة المحدودة معروفة للناس

وهى تفى باحتياجات المنفى الذى نحن فيه

وتتكيف طبقاً للضربات القاتلة من تقلبات القدر ،

فتتبدل مع الأجواء أو تذهب مع الزمن .

أما اللغة الخالدة الأخرى النبيلة الجامعة اللانهائية ؟

فهى اللغة للموهوبة بجماع الذكاء :

ولم تكن قط نبرة مائتة تذهب هباء مع الهواء

فليست هـذه مقدرتهم التى عرفناها فى ميادين اللهو واللذة والمتعة الفاجرة . . . وليست هـذه وجاهتهم التى عرفناها فى قصورهم وحيث يحلّون !

وأنت أيتها الإسكندرية : إنهم لم يحبوك فى يوم من الأيام . . . ولكنهم أحبوا النهم ولهوهم ، وأحبوا عندك الظهور والكبرياء !

إنهم لم يعطوك حين كانوا يعطونك كل صيف مما وهبتهم الأيام، رغبتهم فى أن ينالك شىء من خيرهم ، ولكنهم لو استطاعوا لأخذوا كل ما لديك لأنفسهم . واذهبى أنت مع الريح !

أيتها الإسكندرية ، إغضبى من اليوم عليهم . إغضبى غضبة لا تعرف الهوادة ولا تعرف اللين ، فليسوا جديرين بعطف منك ولا وفاء ! ولتغضب مصر جميعاً لغضبة الاسكندرية ، لتغضب . . . فإنا نحب الخير ونحترم مثله ، ولسنا عبيد الألقاب ، ولسنا قطيعاً فى مزرعة الوجهاء .

إن للفقراء حقاً مشروعاً فى رقاب الأغنياء . طلبوه اليوم منهم فأنكره هؤلاء . . . فليذهب كل ما كان لهم فى نفوسنا من حب ، وليذهب كل ما كان لهم فيها من تقدير . . .

ولتبق نكبة الاسكندرية ماثلة فى أذهاننا دائماً ، لتذكرنا بأن للانسان حقوقاً طبيعية فى المجموع الذى يعيش فيه .

تتمثل هذه الحقوق — أول ما تتمثل — فى أننا يجب أن نحيا إلى حياة معتدلة ، فيها رخاء لنا جميعاً ، وتحصين لنا جميعاً . فلا تعيش طائفة جاحدة منا عيشة فائقة الثراء . . . وتحيا أخرى حياة الأغنام !

أيها العاجزون المحتاجون المنكوبون ، لا تفكروا طويلاً فى عطف القادرين . . . أيها الفقراء ، لا تثقوا كثيراً فى قلوب الأغنياء . . . فلا يعرف الألم إلا من قاساه فى يوم من الأيام . . .

(حلوان) عبد الرحمن عبد الحميد

إنها تعبير حى يُسمعُ فى القلب :
فهى تُسمعُ وتُشرحُ ويُتحدثُ بها مع النفس ،
وهذه اللغة الشعورية تخلب وتضيء وتلهب
وليس للنفس لكى تُعبِّر عن خطراتها الملتهبة
سوى تنفس الصعداء والحماس والوثوب .
هذه هى لغة السماء التى تنطق بها الصلاة ،
ولغة الحب المفعمة بالحنان فى الحياة الدنيا

***

فى المناطق الطاهرة حيث أحب أن أطير ،
يمشى الحماس أيضاً على كشف أسرارها .
هو وحده سراجى فى هذه الليلة الظلماء ،
وهو الذى يفسر لى العالم أحسن مما يفسره العقل .
تعال إذن ! إنه دليلى ، وأريد أن أخدمك .
على أجنحتها النارية تعال واختطف !
ها هو ظل العالم قد امّحى عن أعيننا .
إننا نهجر الزمن ونجول فى الفضاء :
وفى نظام الحقيقة الأبدى ، ها نحن أولاء وجهاً لوجه أمام الحقيقة !
وهذا الكوكب الفرد ، الذى لا زوال له ولا فجر ،
إنه الله ، هو رب كل شىء ، الذى يقدس نفسه !
كل شىء من فضله : الكون والزمن ،
ومن وجوده الخالد ، جميع العناصر الصافية .
اللانهاية مداه ، والأبدية عمره ،
النهار نظرته ، والعالم ظله .
جميع الوجود يبقى تحت ظل يده
فالكائنات الطافية على أمواج الأبدية التى تجرى من فيضه ،
كنهر يتغذى من هذا النبع الذى لا ينضب له معين ،
يختفى فيه ويؤول إلى الفناء ، بينما كل شىء يبتدىء .
إن صنعه الكامل الذى لا حد له مثله ،
يمجد حين يوجد ، اليد التى صنعته :
يحشد الخلق فى الخلد بين زفرة وأخرى ،
فهو إذا شاء قال : كن فيكون .
كل شىء منه وإليه
إرادته المقدسة هى شريعته الإلهية

ولكن هذه الإرادة التى لا غلّ لها ولا خوَر ،
هى فى وقت واحد : القدرة والإرادة والعدل والحكمة .
كل ما عساه أن يكون يجرى وفق إرادته
وكذلك العدم ينهض بمقدار :
الذكاء والحب والقوة والجمال والشباب ،
هو قادر على منحها بلا انقطاع دون أن ينضب له معين .
وهو يغمر العدم بنعمه القيمة .
وأقرب علامات وجوده أنه يستطيع أن يخلق آلهة !
ولكن هؤلاء الآلهة من صنع يده ، والأبناء من قدرته ،
من شأنهم أن يبرهنوا على وجوده الخالد ،
وهم يميلون بطبعهم إلى الإقرار بوجود خالقهم .
إليه مرجعهم جميعاً وهو وحده الكافى !

***

هذا هو الله الذى تعبده جميع النفوس ،
والذى دان له (ابراهيم) ، واهتدت إليه بصيرة (فيثاغورس)(1)
وأشاد بذكره (سقراط) ، ولمس وجوده (أفلاطون)
هذا الإله الذى أظهر الكون للعقل حقيقة ،
والذى تنتظره العدالة ، ويرجو لطفه الشقاء ؛
والذى دعا إليه عيسى فوق الأرض !
ولم يعد من أثر للإله الذى تصنعه يد الإنسان ،
ذلك الإله الذى عبر عنه النفاق الخاطئ ،
ذلك الإله الذى شوهت حقيقته يد الكهنة الزائفين ،
والذى كان يعبده أسلافنا السذّج وهم يرتعدون

***

إنه وحيد . إنه واحد ، إنه عادل ، إنه حميد
ترى الأرض صنعه ، وتعرف السماء اسمه !
سعيد من يعرفه ، وأسعد منه من يعبده !
هو الذى ، بينما الناس فى جحود أو إنكار ،
يظل وحده فى مصاف مصابيح الليل القاتمة ،
ينهض فى الخراب حيث يجتذبه الإيمان ؛

(1) لم يعترف فيلسوف ما من الملحدين اعترافاً تاما بوحدانية الله ، بيد أن الفلسفة الروحانية على الاطلاق تبرهن منطقياً على تلك الوحدانية أما التدرج الذى حاول «لامرتين» أن ينظمه هنا بين «فيثاغورس» و «سقراط» و «أفلاطون» ، فهو مجازى فى صميمه

ويلهج بالمحبة والشكران ،
ويحرق روحه كالبخور فى حضرته !
ولكن لكى تصعد إليه أنفسنا المحطمة
يجب أن تمنح أعلى قوتها وفضيلتها .
ينبغى أن نطير إلى السماء على أجنحة من الحب ،
فالرغبة والحب هما جناح الروح

* * *

آه لِمَ لَمْ أولد فى مستهل الخليقة البشرية ؟
حين لم تكد تنتشر من بين يديه ،
قريباً من الله قرباً زمنياً ، وأكثر قرباً بالطاهر ،
حيث تناجيه الخلائق ، وتسير فى حضرته !
لِمَ لَمْ أر العالمَ منذ بزوغ شمسه الأولى !
لقد كان كل شيء يحدثه عنك، وكنت أنت نفسك تناجيه ،
وقد كان الوجود يلهج بجلالك المقدس ،
وكانت الطبيعة الخارجة من أيدى الخالق ،
تنشر بكل المعانى اسم منشئها :
هذا الإسم الذى حجب منذ أجيال سحيقة ،
فإذا به يتلألأ فى روعة أكثر بريقاً فوق مبتدعاتك :
ولم يَتَطلّعْ الإنسان فيما مضى إلا إليك ،
فكان يدعو ربه ، وكنت تقول : « أنا هو »

* * *

لقد تفضلت فتعهدت بمناجاتك تعليمه زمناً طويلاً كما يتعهَّد الطفل ،
وبعد زمن طويل اقتضت مشيئتك أن تهديه سواء السبيل
وقد تجلّت له عظمتك مرة ،
فى أودية رستّار ،
فى حرج حُوريب بصحراء سينا ،
أو على قمة الجبل المقدس
حيث أملى موسى على العبريين شريعته الجليلة !
وهؤلاء أبناء يعقوب أول مواليد البشر ،
ظلوا يتلقون المن من يديك أربعين عاماً ،
وكنت توقظ نفوسهم بآياتك الحية ،
وكنت توحى أمام أعينهم بلغة المعجزات ،

وعند ما نسوك ، نزلت ملائكتك
وأعادت إلى قلوبهم الحائرة ذكراك .
ولكن أخيراً ، كنهر بعُد عن منبعه ،
ذهبت هذه الذكرى الصافية فى سبيلها ،
ومن هذا الكوكب القديم أخيا ليل الزمان المظلم
الناطقَ المضيئة تدريجياً .
لقد أمسكتَ عن المناجاة ، فالنسيان ويد الأجيال
فضلا عن هذا الاسم العظيم الذى تتسم به بدائعك ،
ولقد أضعف مرور الأجيال الإيمان ،
ووضع الإنسان الشك بين العالم وبينك .
نعم ، هذا العالم يا مولاى قد أصابه الهرم بالنسبة لعظمتك ،
لقد نسيَ اسمك وأثرك وذكراك
ولكى تستعيدها يجب علينا أن نتطلى من جديد نهر الأيام موجة فوجة .
أيتها الطبيعة ، أيها الفلك ! عبثاً تراكما العين .
وا أسفا ! بدون أن يرى الإنسان الله يمجد المبدع ،
إنه يرى وعبثاً يتتبع آلاف الشموس ،
التى تجرى فى مجارى السموات جرياناً عجيباً ،
إنه لم يعد يعترف باليد التى تحركها .
معجزة أبدية لم تعد معجزة .
إنها تسطع فى الغد كما كانت تسطع بالأمس !
من يدرى أين تبتدئ طريقها الجليل ؟
من يدرى إذا كان هذا السراج (الإيمان) الذى يتلألأ ويشرق للمرة الأولى فى العالم ؟
إن آباءنا لم يشهدوا قط سطوع دورته الاولى ،
والأيام الخالية لا يعرف لها أول قط .
عبثاً توحى عنايتك الإلهية
تجليك فى هذه التطورات العظيمة على العالم المعنوى ،
إن من تدابيرك أن ينتقل صولجان الملك عبثاً
بين البشر من يد إلى أخرى ،
إن أعيننا التى ألفت تقلبها ،
قد جعلت من العظمة عادة فاترة ،
وكم شهدت الأجيال